الرسالة العذراء:
دراسة في التراكيب التوجيهية التعليلية

The Virgin Epistle: A Study in Explanatory Directive Structures

م.د. سهام مظلوم عباس

الجامعة العراقية / كلية العلوم الإسلامية - قسم اللغة العربية

E - Mail: Sehammad.a.alsalman@aliraqia.edu.iq

Dr Seham Madhloom Abbas

Al iraqia University, College of Islami Sciences ,

Department of Arabic Language

مجلة العلوم الإسلامية
المجلد 4 | العدد 43
www.isscj.edu.iq

Journal of Islamic Sciences
Vol.4 | Issue 43
ISSN: 2225-9732
August 2026

الملخص

يسعى البحث إلى دراسة التراكيب التوجيهية التعليلية في الرسالة العذراء، بوصفها ظاهرة خطابية مبنية على الترابط الدلالي بين فعل التوجيه وعلته.وقدشكَّلت هذه التراكيب مكوناً رئيساً في متن الرسالة، التي مثَّلت إحدى المدونات التراثية التي انشغلت بالتعليم والتأسيس لقواعد صنعة الكتابة فجمعت بين فاعلية التوجيه وقوة التأثير بما حوته بين طياتها من آليات ووسائط ناظمة دعمت خطاب التوجيه، وأكسبته قدرة إقناعية عالية وقدانتظمت هذه التراكيب وفق نسق بنائي متماسك، تنوعت أنماطه تبعاً لمقتضيات المقام فكانت أداةً فاعلة في تحقيق المقاصد الإرشادية والتعليمية، مما يبرز أهمية الخطاب التوجيهي في الرسالة العذراء بوصفه خطابًا إرشادياً تعليمياً قائمًا على الإقناع.

الكلمات المفتاحية: الرسالة العذراء، التراكيب التوجيهية التعليلية، الخطاب التوجيهي.

Abstract:

This study aims to study the explanatory and directive structures in the Virgin's Epistle, as a rhetorical phenomenon based on the semantic connection between the act of directing and its cause. These structures constituted a major component in the text of the Epistle, which represented one of the heritage texts concerned with education and establishing the rules of the craft of writing. It combined the effectiveness of directing with the power of influence through the mechanisms and organizing means it contained, which supported the directive discourse and gave it a high persuasive power. These structures were organized according to a coherent structural pattern, whose patterns varied according to the requirements of the context, and were an effective tool in achieving the guiding and educational objectives. This highlights the importance of the directive discourse in the Virgin's Epistle as a guiding and educational discourse based on persuasion.

Keywords: The Virgin Epistle, of Directive and Explanatory Structures, directive Discourse.

مجلة العلوم الإسلامية
المجلد 4 | العدد 43
www.isscj.edu.iq

Journal of Islamic Sciences
Vol.4 | Issue 43
ISSN: 2225-9732

August 2026

المقدمة

تحظى الرسالة العذراء بمكانة مهمة في نقد النثر العربي القديم، فهي من المدونات التي اتخذت من صنعة الكتابة موضوعًا لها، وعملت على إرساء قواعدها وتبيان أصولها.وقد توشح خطابها بأساليب توجيهية غايتها تعليم الكُتاب وإرشادهم، فتشكل الخطاب التوجيهي في الرسالة العذراء قائماً على التفاعل بين التوجيه والتعليل إذ برزت التراكيب التوجيهية التعليلية ملمحاً بنائياً فيه، تحقيقاً لمقاصد الخطاب التعليمية والإرشادية وترسيخ دلالاته في ذهن المتلقي. وقد قُسمت الدراسة إلى تمهيد تضمن مدخلاً للتعريف بالرسالة وبيان الإطار المفهومي للتراكيب التوجيهية التعليلية، أعقبه الحديث عن نسق التراكيب التوجيهية التعليلية الذي شكل محور الدراسة، وقُسم بحسب طبيعة تشكله داخلها إلى ثلاثة أقسام: التوجيهات البسيطة المعللة، والتوجيهات المركبة المعللة، والتوجيهات المعللة المدعمة، ثم خاتمة تضمنت أبرز النتائج التي توصل إليها البحث.

التمهيد:

أولاً: مدخل إلى الرسالة العذراء

تندرج الرسالة العذراء ضمن مدونات نقد النثر في التراث العربي القديم؛ فهي من الخطابات النقدية التي تتمتع بنظام يتضمن حمولة نقدية هاجسها المركزي تعليم صنعة الكتابة، والوقوف على مقاييسها فهي «الرسالة التي خصها مؤلفها بمايجب على كتّاب الدواوين مراعاته في تحبيرهم لرسائلهم الرسمية من تقاليد شكلية ومضمونية»[١] وقد نسبت هذه الرسالة في البداية لإبراهيم بن المدبَّر[٢] غير أن هذه النسبة صُحّحت لاحقًا إلى الشيباني[٣] وأنَّ اختلاف النسبة أو تصحيحها لا يقلل من أهمية الرسالة كما ذكر د. زكي مبارك «فإن نسبتها إلى أيّ منهما لا يقلل

(١) نظرة على فن الكتابة عند العرب في القرن الثالث الهجري، ٦.

(٢) ينظر الرسالة العذراء لأبراهيم بن المدبر، تحقيق، د. زكي مبارك، مكتبة دار الكتب المصرية بالقاهرة، ط١، ١٩٣١

(٣) ينظر الرسالة العذراء لأبي اليسر ابراهيم الشيباني، تحقيق، د.يوسف محمد فتحي، ط١، ٢٠٠٥، والرسالة العذراء لأبي ابراهيم بن محمد الشيباني، تحقيق، محمد مختار العبيدي، ط١، ٢٠٠٩.

من أهميتها في شيء كل ما هنالك أننا نتأسى بتلك القصيدة العربية التي إدعى نسبتها سبعون شاعرًا لا أكثر»[١]فالخلاف في نسبتها لايمس جوهر النص، إذ تبقى الرسالة محتفظة بثباتها وأصالتها. فما يعنينا هو الرسالة ذاتها بما تنطوي عليه من تراكم معرفي ومدى مساهمتها في بناء النص الكتابي والترسلي.

وإذا تأملنا بناء الرسالة العذراء وجدناها نشأت في إطار حواري يستهدف توضيح دقائق البلاغة وأسرار أدوات الكتابة وتحديد ما يجعل الكاتب مستحقًا لمقامه وما يلزمه من عدة تعينه على أداء مهمته ويظهر ذلك جلياً في مطلع الرسالة «وصَلَ إليّ كتابُكَ العَجيبُ الذي استَفهمتَني فيه بِجوامعِ كلمِكَ جوامعَ أسْبابِ البلاغةِ، واستكشَفْتَني عن غوامضِ آدابِ أدَواتِ الكِتابَةِ، سَألتني أن أقفَ بِكَ على وزنِ عذوبَةِ اللَّفظِ وَحلَاوتِهِ، وحُدودِ فخامَةِ المعنى وَجَزالَتِه، .. وَمَتى يَكُونُ الكاتبُ مُسْتَحِقًا اسمَ الكتابةِ، والبَليغُ مُسَلَّمًا له مَعانيَ البَلاغَةِ في إشارَتِهِ واسْتعارَتِهِ، وإلى أيّ أَدَواتِهِ هو أحْوَجُ، وبأي آلاتِهِ هو أعْمَلُ، إذا حَصْحَصَ الحَقُّ، وَدُعِيَ إلى السَّبْقِ وفَهِمْتُه»[٢] الذي يكشف أن النص يقوم على قلق معرفي ورغبة في استجلاء الدقائق الخاصة بالخطابات الديوانية وقد أعدّ نص السؤال إطارًا معرفيًا ممهداً لجواب المؤلف إذ يقول: «وأنا راسِمٌ لَكَ _أيَّدَكَ اللّٰهُ _ مِنْ ذَلِكَ ما يجْمَعُ أكثرَ شَرائِطِكَ، ويعبّرُ عن جُملَةِ سُؤَالِكَ، وإن طوَّلْتَ في الكِتَابِ وَعَرَّضْتَ، وَأطْنَبتَ في الوَصفِ وأسهَبْتَ، ومُسْتَقصٍ على نفسِي في الجوابِ على قِدْرِ اسْتِقصائِكَ في السُّؤالِ»[٣]) نلحظ أن المؤلف يحرص على أن يكون جوابه جامعاً لأهم الشرائط وأدقها إذ لايترك جانباً من جوانب السؤال دون معالجة، فيجعل الجواب مُعبراً عن جوهر السؤال ومراميه ومكافئاً له في سعته وتفصيله، فيحقق توازنًا بين مقتضى السؤال و الجواب تحقيقاً للمقصد التعليمي والتوجيهي للخطاب إذ إن»الكلام فيها موجه إلى كتّاب الدواوين كاتمي أسرار الملوك والخلفاء»[٤]وبذلك غدت خطاباً أدبياً مؤصَّلاً يستهدف الإرشاد والتقعيد.فتطرّق مؤلف الرسالة إلى جملة من موضوعات صناعة الكتابة كثقافة الكاتب وصفاته، وزي الكتّاب، وطبقات أقدار المخاطبين وتخير الألفاظ والمعاني، وصدور الرسائل وخواتيمها، وتاريخها وأوقات الكتابة،

(١) ينظر نظرة على فن الكتابة عند العرب في القرن الثالث الهجري: ٣٣.
(٢) الرسالة العذراء: ٥.
(٣) الرسالة العذراء: ٦.
(٤) نظرة على فن الكتابة عند العرب في القرن الثالث الهجري: ١١.

وفضل البلاغة وماهيتها وغير ذلك.

يتضح مما تناولته الرسالة من مسائل في البلاغة وصناعة الكتابة أنها تزخر بالنقد الأسلوبي والمعنوي وأن مؤلفها صاغها بغرض تعليم صناعة الكتابة، لاسيما في ظل كثرة الدواوين وحاجة الدولة إلى كتّاب كفء[١].ويؤكد المؤلف فرادة عمله بقوله: «وهذِهِ الرّسالةُ عَذراءُ؛لأنَّها بِكرُ مَعَانٍ لمْ تَفْترِعْهَا بلاغَةُ النَّاطِقين، ولاَ لَمَستْهَا أكُفُّ المُفَوَّهينَ ولا غَاصَتْ عَلَيها فِطَنُ المُتكلّمينَ، ولاَ سَبقَ إلى ألْفاظِها أذْهانُ النّاطِقين»[٢]ويبرز هذا النص وعي المؤلف التام بأصالة محتواه وفرادة معانيه وقد علق د. زكي مبارك على هذا المعنى مؤكداً بقوله: »بعض الفقرات في الواقع أصيلة تامة الإحالة وتبرز ما للكتابة النثرية من قيمة وأهمية والرسالة في مجموعها عمل ممتاز وقد نعتها صاحبها بالعذراء لإعتقاده أن أحداً لم يسبقه إلى معالجة المسائل التي تشتمل عليها وإن كان الجاحظ قد تناول بعضاً من تلك المسائل بيد أن لهذا العنوان بوجه عام مايبرره فهي فعلاً رسالة عذراء»[٣]وبذلك يتضح ما للرسالة من قيمة وأهمية وإن تسميتها بالعذراء تعكس إدراك المؤلف بخصوصية الرسالة ووعيه بأن ما صاغه يمثل إسهامًا مهمًا في مسار نقد النثر العربي القديم.

ثانيًا: الإطار المفهومي للتراكيب التوجيهية التعليلية

يقوم مفهوم التراكيب التوجيهية التعليلية على بناء لغوي يجمع بين التوجيه والتعليل في بنيةٍ خطابيةٍ واحدة، إذ تنبثق إجرائيته من العلاقة الترابطية القائمة بين فعل التوجيه وعلته فلا يكتمل المعنى التوجيهي في خطاب الرسالة إلا باكتمال العلاقة بين جزأيه، ويعدُّ التوجيه المكوّن الأول لهذه التراكيب والتوجيه لغة مأخوذ من مادة (و ج ه)، ويدل على مقابلة الشيء، والوجه مستقبل لكل شيء، ..ووجهت الشيء جعلته على وجهته[٤]، ومن ذلك يعني حمل الشيءعلى اتجاه أو مسار معين بقصد أو إرادة.ومفهوم التوجيه هوسعي المخاطب لتوجيه المتلقي نحوفعل أو تركه، [٥] باستعمال صيغ تدل على الطلب كالأمر، النهي، والاستفهام، والتحذير، وذكر العواقب، والتوجيه المركب، وألفاظ المعجم مشفوعة بالسياق واستثمار المعرفة المشتركة في ذهن المرسل.[٦]أما

(١) ينظر النظرية النقدية عند العرب: ٤٥.
(٢) الرسالة العذراء: ٤٨.
(٣) نظرة على فن الكتابة عند العرب في القرن الثالث الهجري: ١١
(٤) ينظر معجم مقاييس اللغة: مادة(و ج ه).
(٥) ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٤٩
(٦) ينظر استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية: ٣٣٩

التعليل فهو الوجه الآخر لهذه التراكيب، والركيزة التي تمنح التوجيه منطقيته بوصفه علاقة منطقية لازمة[١]؛وقد عرفه ابن منظور بقوله: »هذا علة لهذا أي سبب لـه»[٢]أو هو»تقرير ثبوت المؤثر لإثبات الأثر أو إظهار علة الشيء»[٣]فالتعليل هو بيان السبب الذي يفسر القول أو الفعل ويمنح النص سلطة إقناعية عالية.إذ إن ذكر الشيء معللاً آكد من أثباته مجردًا[٤]ممّايقوي تأثيره في النفس وثقته بها[٥]فيتحول الخطاب به من مجرد توجيه مباشر إلى خطاب قائم على الإقناع.

وينتظم التوجيه والتعليل في سياق تركيبي واحد والتركيب في أصله يقوم على وضع الشيء بعضه على بعض[٦]وقد حظي مفهوم التركيب بعناية في الفكر البلاغي العربي القديم، ولاسيمافي (نظرية النظم) لعبد القاهر الجرجاني الذي يرى أن قيمة اللفظ لاتظهر معزولة، بل عبر تعلقه بغيره؛إذ يقول»لانظم في الكلم ولاترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ويبنى بعضهاعلى بعض، وتجعل هذه بسب من تلك»[٧]ويغدو هذا التعليق والتأليف وسيلة لتنظيم الخطاب وفق ما يقتضيه المقام ومقاصد المتكلم، فيتآلف التوجيه والتعليل في بنية واحدة تتحدد قيمتها من خلال العلاقات التي تنشأ بين عناصرها، بما يحقق البعد الإقناعي للخطاب.

وتستمد هذه التراكيب فاعليتها التأثيرية من النظام اللغوي ذاته، إذ تتأسس العملية اللغوية على ركيزتين أساسيتين هما: الاختيار والتركيب، ويعبر الاختيار عن قدرة المتكلم على انتقاء المفردات اللغوية الأنسب لخطابه، في حين يمثل التركيب النتاج التأليفي الذي ينظم هذه العناصر وفق إمكانات اللغة[٨].

وفي سياق دراسة فاعلية الخطاب ووظائفه اهتمت المقاربة التداولية، ببيان الشروط التي تكفل فاعلية التوجيه وبيان أثره في المتلقي وفي هذا الإطار يندرج تصور(باخ) الذي استند

(١) ينظر دلالة التعليل في اللغة العربية السببية انموذجا: ٢٩٦.
(٢) لسان العرب المحيط: مادة(علل).
(٣) التعريفات: ٦١.
(٤) ينظر الطراز المتضمن لاسرار البلاغة: ٣ / ١٣٨ - ١٣٩
(٥) ينظر التراكيب اللغوية في العربية دراسة وصفية تطبيقية: ٤٧.
(٦) ينظر لسان العرب مادة (ركب).
(٧) دلائل الاعجاز: ٥٥.
(٨) ينظرتعزيز القوة الانجازية في بنية العقل العربي لمحمد عابد الجابري: ٢٧٠٨

إلى بعض مبادئ التخاطب عند (بول غرايس)[١]، إذ ربط فاعلية أفعال التوجيه بقاعدتي الكم والكيف القائمتين على توفير القدر الكافي من المعلومات وإسناد التوجيه بمسوغات مقنعة في الخطاب[٢].

وتنسجم التراكيب التوجيهية التعليلية في ضوء ذلك مع ماذهب إليه(باخ) من اقتران الفعل التوجيهي بمسوغاته التعليلية، بما يؤدي إلى بناء خطاب متماسك يضمن استجابة المتلقي.ولأنّ لكل سياق لغوي تكيفاته وخططه التي تناسب مقتضياته لتحقيق مقاصده[٣]، فقد تجلى هذا المبدأ بوضوح في اختيار التوجيه والتعليل داخل(الرسالة العذراء)؛مراعاة لحال المخاطَبين بها وهم(الكُتّاب).ولمّا كان الهدف منها أن يجعلها رسالة في مقاييس صناعة الكتابة[٤]فاستعملت آليات التوجيه والإرشاد بكثافة إذ يأتي تبليغ المحتوى في المقام الأول فيهدف المرسل إلى تحقيق منفعة للمتلقي ودرء أي ضررمحتمل عنه[٥].

وبناء على هذا، لايمكن عد التوجيه فعلاً لغوياً فحسب، بل هو وظيفة من وظائف اللغة[٦]، يعمل الكاتب على إسناده بعلة تدعم أثره لإقناعي.فلايكتمل التوجيه في (الرسالة العذراء) إلا بالتعليل؛ لتصبح التراكيب التوجيهية التعليلية ليست مجرد صياغات نحوية؛ بل أنساقاً تداولية تكشف مقاصد الخطاب التوجيهي وتفسر دوافعه ومآلاته.

نسق التراكيب التوجيهية التعليلية:

يُعدّ النسق التوجيهي التعليلي من مرتكزات الصوغ البنائي في الرسالة العذراء، إذ يمثل انعكاسًا داخلياً لما يريد المرسل إيصاله إلى المتلقي، و يقوم بناؤه على ترابط التوجيه والتعليل في إطار من العلاقات الدلالية التي تمنح الخطاب فاعليته الإقناعية.ويتجلى التوجيه غالباً بأسلوبي الأمر والنهي، اللذين كانا من أكثر الأساليب التوجيهية حضورًا في نص الرسالة؛ لما يحملانه من دلالة الطلب والكف عن الفعل، إذ يمثل الأمر صيغة تستدعي الفعل على وجه الإلزام[٧]، في حين

(١) ينظر اللسان والميزان: ٢٣٨، ٢٦١
(٢) ينظراستراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية: ٣٣٩ - ٣٤٠
(٣) ينظر نظام الارتباط والربط في تركيب التركيب في العربية: ٥٣.
(٤) ينظر التفكير البلاغي عند العرب: ٣١٧
(٥) ينظر استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية: ٣٢٣
(٦) ينظر استراتيجياتالخطاب مقاربة لغوية تداولية: ٣٢٤
(٧) ينظر الطراز المتضمن لأسرار البلاغة: ٣ / ٢٨١ - ٢٨٢

يمثل النهي طلب الكف عن الفعل(١).وتتدرج البنية الخطابية في انتقالها من التوجيه إلى التعليل عبر وسائط لغوية تعليلية تنوعت في عموم الرسالة، وتجلى حضورها في صور متعددة، ك(الفاء)، (واللام)، و(لأن)، و(لئلا)، والتعليل بالفاء المقرونة ب(إنَّ)، فضلاً عن التعليل بالتراكيب الشرطية، فتعمل هذه الوسائط على تحقيق عملية التتابع والانتقال من فعل التوجيه إلى علته مما يرفد الأسلوب بسيرورة دلالية تكتمل باكتمال المعنى المبني على تلازم الطرفين وقد أدت هذه الوسائط مجتمعة وظيفة تعليلية داخل الخطاب، وتتباين أنماط التراكيب التوجيهية التعليلية في الرسالة بحسب طبيعة تشكلها داخل الخطاب، و يمكن تقسيمها على النحو الآتي:

١. التوجيهات البسيطة المعللة:

يتأسس البناء التركيبي في هذا النمط على استعمال المرسل لأسلوب توجيهي مفرد، مثل الأمر أو النهي مقروناً بتعليل صريح، يمنح الصيغ التوجيهية بعدًا إقناعيًا. ويظهر ذلك في مقدمة الرسالة، إذ اتخذ الخطاب فيها مسارًا تعليميًا يهدف إلى توجيه المتلقي لسبل تحصيل صناعة الكتابة، فتتآزر آلية التوجيه المفرد مع التعليل فيه، كقوله:

«وَانظرْ في كتبِ المقاماتِ والخُطبِ، ومحاوراتِ العربِ، ومعانِي العَجمِ، وحُدودِ المنطقِ، و أَمثالِ الفرسِ ورسائلِهِم، وعهودِهِم وتوقيعاتِهِم، وسيرهم ومكايِدهِم في حروبِهِم، بعدَ أَنْ تتوسّطَ في علم النَّحوِ و التَّصريفِ واللُّغةِ والوثائقِ والشروطِ ككتبِ السجلَّاتِ والأماناتِ، فَإِنَّهُ أَوَّلُ ما يحتاجُ إِليه الكاتبُ.»(٢)

ينبني النص على فعل توجيهي يتمثل بقوله: (انظرْ في كتب...)، إذ يرد التوجيه بصيغة فعل الأمر الصريح الذي انبثقت منه المعطوفات اللاحقة به موجهًا المتلقي لتحصيل جملة من المعارف التي يعدها أساسًا في صنعة الكتابة.وقد أعقب هذا التوجيه بالتعليل بقوله: (فإنَّه أولُ مايحتاجُ إليه الكاتب)إذ جاء هذا التعليل لبيان السبب في تحصيل تلك المعارف والثقافات التي حددها المتكلم في خطابه فهي أول ما يحتاج إليها الكاتب في بناء صنعته الكتابية وبذلك يعمل البناء التركيبي على تحويل التوجيه من مجرد أمر إلى خطاب معلل ذي بعد إقناعي.

وللبناء المفرد للتوجيه حضورٌ في تحديد أوقات الإبداع الفني للكتابة وما يُفضَّل فيها، ويدعَّم بتعليل يبين سببه بقوله: »وَارتصِدْ لكتابك فراغَ قلبكَ وساعةَ نشاطِك، فَتجِدَ مايَمتنِعُ عليك

(١) ينظر المطول شرح تلخيص المفتاح: ٤٢٦.
(٢) الرسالة العذراء: ٧

بالكدِّ وَالتكلُّفِ؛ لأنَّ سماحةَ النَّفس بمكنُونِها وَجُودَ الأذهانِ بِمخزونِها، إنَّما هو مع الشَّهوةِ المفرِطَة في الشيءوالمحبَّةِ الغالبة فيه، أو الغَضبِ الباعث منهُ ذلكَ»(١)

يفتتح النص بفعل الأمر(ارتصدْ) الذي جاء بصيغته الطلبية المباشرة، والتي قصد بها إرشاد المخاطب إلى اختيار اللحظة المناسبة للكتابة عند صفاء النفس وحضور الذهن. وقد ارتبط هذا التوجيه (بفاء السببية) في قوله: (فتجدَ مايمتنع عليك بالكد والتكلّف)، والتي يكون ما قبلها سبباً فيما بعدها (٢) بما يكشف عن النتيجة المترتبة على هذا التوجيه إذ يتحقق به ما لايتحقق في حال الكدّ والتكلف.ثم يتعمق البناء التعليلي عبر الإداة (لأنَّ) التي تقوم بإدراج السبب(٣) وتحدث ترابطاً بين التراكيب إذ بين النص أن جودة المعاني و انبثاقها ترتبط بحالات إنفعالية نفسية تتمثل بالشهوة المفرطة والمحبة الغالبة، أو الغضب الباعث، بوصفها دوافع للإنتاج الإبداعي لدى الكاتب.

ويوظف الكاتب التوجيه البسيط في حديثه عن العناية بأدوات الكتابة ولاسيما القلم، فتبرز الصيغة الأمرية المعللة بوضوح كما في قوله: »وَاجعَلْ لقلَمكَ بِرايةً حادةً، فَإنَّ تعثُّرَ يد الكاتِبِ وقت قَطع القِرطاسِ ناقِصٌ مروءَتِهِ وَمُخِلٌّ بِظرفِهِ»(٤)

يتصدر النص فعل التوجيه الأمري في قوله: (واجعلْ لقلمك براية حادّة) الذي يوجه المتلقي إلى العناية بأداوات الكتابة، ولاسيما القلم وإحكام إعدادها.وقد اقترن هذا التوجيه بتعليل ورد في قوله: (فإنَّ تعثر يد الكاتب..) إذ يبين أن عدم بري القلم برياً حادًا سبب في تعثر يد الكاتب إثناء قطع القرطاس انتقاص لمروءته وإخلال بظرفه، مما يؤكد أهمية هذا التوجيه ويقوي بعده الإقناعي.

وقد يَرد النهي في الرسالة من خلال أسلوب النفي مثل (لايجوزُ) فيُفهم منه النهي عن الفعل، إمّا بتركه أو بنفي جوازه(٥)وممّا ورد منه قوله: »ولا يَجوزُ في الرَّسائلِ ما يجوزُ في الشِّعرِ؛ لأنَّ الشّعرَ موضعُ اضطرارٍ، فاغْتَفَروا فيه الإغرابَ وسوءَ النَّظمِ والتَّقديمَ والتَّأخيرَ والإضمارَ موضعَ الإظهار»(٦).

(١) الرسالة العذراء: ٣٠.
(٢) ينظرشرح المفصل: ٥ / ١١١
(٣) ينظر الدر المصون في علوم الكتاب المكنون: ٥ / ٢٣٧
(٤) الرسالة العذراء ٢٣.
(٥) ينظر استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية: ٣٥١
(٦) الرسالة العذراء: ١٩

تؤسس البنية التوجيهية الورادة في قوله (لا يجوزُ في الرسائل) لقاعدة تهدف إلى ضبط عملية الكتابة من خلال التفريق بين نمطي الكتابة في الشعر والنثر. ومن أجل ترسيخ التوجيه في نفوس متلقيه يسنده بتعليلٍ صريح بقوله: (لأنَّ الشعر موضع اضطرار)، إذ يُقدَّم الطابع الاضطراري للشعر بوصفه سببًا يبرّر ما يقع فيه من خروج عن القواعد، على خلاف مايكون عليه نمط الكتابة في النثر ولاسيما الرسائل.

٢. التوجيهات المركبة المعللة:

يستعمل المخاطِب في خطابه بهذا النمط التركيبي أكثر من أسلوب توجيهي في سياق واحد(١)، إذ يركز كل أسلوب على جانب معين من الفعل التواصلي(٢)، ويظهر ذلك في تعاقب صيغتي الأمر والنهي أو العكس مع اقترانهما بتعليل صريح، مما يعكس كثافة توجيهية إقناعية تسهم في ضبط سلوك المتلقي وتوجيهه.ولا تتحقق هذه الكثافة التوجيهية إلا عبر هذا البناء المركب، الذي يستجيب لمقاصد الخطاب التي تستهدف التأسيس لصنعة الكتابة، فالتركيب نتاج لمقاصد الخطاب(٣)، ومما وردّ منه توجيه الكاتب إلى ضرورة كتابة التاريخ في الكتب والرسائل، معللاً أهميتها في تحقيق الأخبار ومعرفة تاريخها كما في قوله:

«ولاَ تَدَعِ التَّاريخَ فإنَّهُ يدُلُّ على تحقيقِ الأخبارِ وقُربِهَا وبُعدِهَا، وانْظُرْ إلى مامَضَى مِن الشَّهرِ ومَا بقيَ منهُ فإنْ كانَ الماضي أقلَّ مِن نصفِ الشهر قلتَ: لكذا ليلةٍ مَضَت من شَهرِ كذا، وإنْ كان البَاقي أقلَّ من النّصفِ قلتَ: لكذا أيضًا بَقيَتْ»(٤)

يقوم النص على بنية توجيهية مركبة تتجلى في تعاقب الأفعال التوجيهية الواردة في قوله: (ولاتدع التاريخ..) و(وانظر إلى مامضى من الشهر)، إذ يتآزر فعل النهي مع فعل الأمر في بناء نمط توجيهي يهدف إلى اعتماد أسلوب محدد في كتابة التاريخ وضبط آلياته، ويدعم هذا البناء بالتعليل الوارد بقوله: (فإنَّه يدل على تحقيق الأخباروقربها وبعدها) فعمل التعليل على بيان سبب التوجيه المركب المتمثل في التحقق من الأخبار ومعرفة قربها وبعدها، وتتعمق فكرة البناء التوجيهي بقوله: (فإن كان الماضي أقل...)، و(وإن كان الباقي أقل..)، إذ يستثمر البناء الشرطي

(١) ينظراستراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية: ٣٦٣.
(٢) ينظر التراكيب النحوية من الوجهة التداولية: ٧٥.
(٣) ينظر المعنى في البلاغة العربية: ٧٤.
(٤) الرسالة العذراء: ٢٦

لتأسيس قاعدة منظمة لكتابة التاريخ تقوم على تحديد العلاقات بين الماضي والباقي من الشهر وبذلك يتحول التوجيه المعلل إلى قاعدة منظمة قائمة على الإقناع والإلزام

ويستثمر الكاتب التوجيه المركب المعلل في إرشاد الكُتّاب إلى حسن اختيار أدوات بري القلم وإعداده، رابطاً بين الأفعال التوجيهية وعللها بما يضمن إحكام أداة الكتابة، كقوله:

«واستعملْ لبري القلمِ سِكينًا طَواويسيًّا، مُذلَّقَ الحدّ، وميضَ الطَّرفِ، فيكونَ ذلك عونًا على بَري أَقلامِكَ، فَإِنَّ محلَّ القلمِ من الكاتبِ محلُّ الرمحِ من الفارسِ؛ ولئن قيل كأَنَّهُ الرُّمحُ الردينيُّ فقد قال الكاتبُ: كأَنَّهُ القلمُ البحريُّ. وتفقَّدِ الأنبوبةَ قبل بَريكَها لئَلَّا تجعلها منكوسةً، وابرِهَا من ناحيةِ نباتِ القصبةِ، وأَرْهفْ ما قدرتَ جانبي قلمك، لِيرُدَّ ما انتشر من المدادِ، ولا تُطِلْ شقَّهُ، فَإِنَّ القلمَ لايمجُّ المدادَ من شقه إلا مقدار ما احتملتْ شَبتاه فارفعْ شبتيه لِيجمعا لك حواشيَ تحضيرِه»(١)

ينتظم النص ضمن نسق توجيهي مركب يقوم على تتابع أفعال الأمر الواردة: (استعملْ، تفقدْ، ابرِها، أرهفْ، ارفعْ)، إلى جانب فعل النهي (لا تُطِلْ)، إذ تشكل هذه الأفعال نسقًا إجرائيًا متدرجًا يهدف إلى ضبط أداة الكتابة (القلم) ومراحل إعدادها عبر خطوات دقيقة أوحت بها الدلالات المعجمية للأفعال، بما يحول عملية إعداد القلم إلى عملية دقيقة محكمة وتقترن هذه الأفعال التوجيهية بوسائط لغوية أفادت التعليل تنوعت بين الفاء السببية بقوله: (فيكونَ ذلك عونًا) والتعليل ب (لئلا) في: (لئلا تجعلها منكوسة)، وباللام في (ليردّ ما انتشر من المداد)، و(ليجمعا لك)، إذ تنهض هذه الوسائط ببيان النتائج والأسباب الباعثة على الأفعال التوجيهية. كما يتعزز الخطاب التوجيهي بالجملة التعليلية الورادة في قوله: (فإنَّ محل القلم من الكاتب محل الرمح..)، و(فَإِنَّ القلمَ لايمجُّ المدادَ من شقه إِلَّامقدار..) إذ تسوق هذه التراكيب العلة و تبرر التوجيه السابق الأمر الذي يجعل التعليل مهيمنًا على البناء التوجيهي فيغدو كل أمر أونهي مرتبطًا بعلته في الخطاب

ويتعزز البناء التوجيهي بآلية التشبيه في قوله: (فإنّ محل القلم من الكاتب محل الرمح من الفارس)، إذ تعاد صياغة العلاقة بين الكاتب وأداته في صورة تمثيلية شبهت القلم بالرمح في علاقته بالفارس فأبرزت مكانة القلم ورسخت دوره في عملية الكتابة، ويتواصل هذا البناء من

(١) الرسالة العذراء: ٢٤

خلال صورتين تشبيهتين متتابعتين كقوله: (كأنه الرمح الرديني)، و(كأنه القلم البحري)، مما يعلي من شأن القلم ويؤكد قيمته في إنجاز الكتابة. وبذلك يتشكل الخطاب التوجيهي بطابعه الإقناعي عبر بنية تتجاوز الإرشاد المباشر إلى بناء إقناعي يقوم على ربط الفعل التوجيهي بعلله، وتعزيزه بالتمثيل البلاغي.

وكما يستعمله في توجيه الكُتّاب للدقة في اختيار الألفاظ والمعاني الملائمة للسياقات والمقامات مع تعليل ذلك بشكل يحقق الأثر الإقناعي كقوله: »وأدِرِ الألفَاظَ في أمَاكِنِها، واعرِضْهَاعلى مَعانِيهَا، وَقَلِّبْهَاعلى جَمِيعِ وجُوهِهَا، حتى تَقعَ مَوقِعَهَا، ولاتَجْعلها قَلِقةً نافِرةً فمتى صارَتْ كذلك هَجَّنتَ الموضعَ الذي أَرَدتَ تحسينَهُ«[1]

يقوم النص على توجيه تعليلي مركب يجمع بين أسلوب الأمر الوارد في قوله: (وأدر الألفاظ في أماكنها، واعرضها على معانيها، وقلبهاعلى جميع وجوهها)، إذ تضمنت الأفعال الأمرية توجيهاً إرشادياً يحث المخاطَب على إحكام اختيار الألفاظ وقد اقترنت التوجيهات بغاية تمثلت بقوله: (حتى تقع موقعها) مبينة أن إحكام الاختيار يفضي إلى بلوغ اللفظة موضعها المناسب، وأسلوب النهي بقوله: (ولاتجعلها قلقة نافرة)، الذي تضمن التحذير من وضع الألفاظ في غير مواضعها، وقد ارتبط النهي بتركيب شرطي تمثل بقوله: (فمتى صارت كذلك هجنت الموضع الذي أردت تحسينه)، إذ أدت البنية الشرطية وظيفة تعليلية تلازمية علق فيها تهجين الموضع على وقوع الألفاظ قلقة نافرة، مما يؤدي إلى الإخلال بحسن الصياغة ووضوحها.

ويتجلى هذا النمط في موضع آخر من الرسالة، بقوله: «فَإِنْ مُنيتَ بحب الكتابةِ وصِناعتِها، والبلاغةِ وتأليفِها، وجاشَ صدرُكَ بِشِعرٍ معقودٍ، أو دَعتكَ نفسُكَ إلى تأليفِ الكلامِ المَنثورِ، وتهيَّأَ لك نَظمٌ هو عندك معتدلٌ وكلامٌ لديكَ متسقٌ، فلا تَدْعُونَّكَ الثقةُ بنفسِك والعُجبُ بِتأليفك أَنْ تَهجمَ به على أَهلِ الصناعةِ؛ فَإِنَّكَ تَنظرُ إلى تَأليفِكَ بعينِ الوالدِ لولدِهِ والعاشقِ إلى عشيقِهِ؛ كما قالَ حبيبٌ:

وَيَسُوءُ بِالإِحسانِ ظَنًّا كَمَنْ هُوَ بِابنِهِ وَبِشِعْرِهِ مفتُونٌ

ولكن اعرضْه على البلغاء والشعراء والخطباء ممزوجًا بغيره»[2].

(١) الرسالة العذراء: ٣٠
(٢) الرسالة العذراء: ٣٥

يتشكل النمط التركيبي في النص من نهي صريح يتجسد بقوله: (فلاتدعونَّك الثقة بنفسك..)، إذ يقصد به نهي المتلقي عن العجب بنتاجه الأدبي والإفتتان به والتعجل في عرضه على أهل الصناعة ويقترن النهي بالجملة التعليلية الواردة في قوله: (فإنَّك تنظر الى تأليفك بعين..) إذ جاءت تبين السبب وتقدم العلة فجعل نظر المؤلف إلى تأليفه ونتاجه يشابه نظر الوالد لولده والعاشق لمعشوقه، فتمنعه المحبة من رؤية مواطن القصور والخلل، وقد دعم الكاتب تعليله بالإستشهاد ببيت أبي تمام حبيب بن أوس الطائي الذي جاء مؤكدًا مضمونه ومعززًا لدلالته. ويستكمل هذا البناء التوجيهي بجملة إرشادية لاحقة وردت في قوله: (ولكن اعرضْه على البلغاء والشعراء والخطباء ممزوجا بغيره)، إذ ينتقل خطاب التوجيه من النهي عن الإفتتان والإعجاب بما ألف من نظم أو نثر إلى تقديم توجيه يقوم على عرض النتاج الأدبي على البلغاء والشعراء والخطباء بعد مزجه بنصوص أخرى لضمان حيادية التقييم، ليتسع البناء التوجيهي من المنع إلى الإرشاد والتقويم.

وبعد أن وجه الكاتب أصحاب المقدرة البلاغية إلى سبل إحكام صناعة الكتابة، يلتفت بأسلوب التوجيه المركب إلى من لم يكن له حظ من هذه الصناعة داعياً إياه إلى تركها وعدم التكلف فيها مقرنًا توجيهه بتعليل يبين ذلك، بقوله «وهذا كُلُّهُ إنْ جَرَيتَ مِنَ البَلاغَةِ على عِرقٍ، وظَهَرتَ مِنها عَلى حَظٍّ؛ فأمَّا إنْ كانتْ غَيرَ مُناسِبَةٍ لِطَبْعِكَ، ولاَ وَاقِعة شَهوَتُكَ عَليها، فَلاتُنْضِ مَطِيَّتَكَ في التِماسِهَا، ولاتُتْعِبْ بَدَنَكَ في ابتِغَائِها واصْرِفْ عِنَانَكَ عنها ولاتَطْمَعْ فيها باستِعارَتِكَ ألفاظَ النَّاسِ وكَلامَهُم، فإنَّ ذلكَ غَيرُ مُثمِرٍ لَكَ ولامُجدٍ عَليكَ».[1]

تعمل أفعال التوجيه المركبة في النص على نهي الكاتب ومنعه في طلب ما لايلائم الطبع وعدم التكلف في صناعة الكتابة عند غياب المقدرة البلاغية من خلال تتابع صيغ النهي والأمر الواردة في النص(فلاتنض، لاتتعب، اصرف، لاتطمع)إذ يتوالى أسلوب النهي لتوكيد المنع والتحذير، معللاً ذلك بقوله: (فأن ذلك غير مثمر لك ولامجد عليك) التي تبين أن سبب المنع يعود إلى عدم تحقق الفائدة فيقوى الامتناع بالتعليل وتزداد قوته التوجيهية.

(١) الرسالة العذراء: ٣٠

٣. التوجيهات المعللة المدعمة

تنتظم التوجيهات في هذ النمط ضمن بنية خطابية يقترن فيها الفعل التوجيهي بالمؤشر التعليلي، فضلاًعن وسائل استدلالية داعمة للفعل التوجيهي، وهذه الوسائل «ليست من إنتاج المرسل بقدر ماهي منقولة على لسانه»(١)وتشمل هذه الوسائل ما يوظفه المتكلم في النصوص من الاقتباس والتضمين وشواهد من أقوال الغير(٢)والهدف من التدعيم تحقيق أقصى طاقة إنجازية تكسب الخطاب المصداقية وتخلق له البواعث النفسية للتصديق والقبول(٣)فهو يجعل النصوص تمارس تأثيرها على المتلقي، ومنها ما استعمله الكاتب في توجيه كُتّاب الرسائل إلى عدم محاكاة ما وردّ من أساليب في القرآن الكريم من الإيصال والحذف في الرسائل والمكاتبات، فوظّف الآيات القرانية في خطابه؛ لتقوية ما جاء به من توجيه ومما ورد منها قوله: »وَاعلَمْ انَّهُ لايَجُوزُ في الرَّسائلِ مَا أتى في آي القُرآنِ من الإيصالِ والحَذفِ، ومُخاطَبَةِ الخَاصّ بالعَامّ، والعامِ بالخاصّ، لأنَّ اللّهَ سُبحانَهُ وتعَالى إنَّمَا خَاطَبَ بالقُرآنِ أقوامًا فُصَحَاءَ فَهِموا عَنهُ –جَلَّ ثَنَاؤُهُ - أمرَهُ ونَهيهُ ومُرادَهُ، والرَّسائلُ إنَّما يُخَاطَبُ بها قُومٌ دُخَلاءُ على اللُّغةِ لاعِلمَ لَهُم بِلسَانِ العَرَبِ؛ وكذلك يَنبغي للكاتِبِ أنْ يَتَجَنَّبَ اللَّفظَ المُشترَكَ؛فإنَّه إنْ ذَهَبَ على مِثلِ قولِهِ تَعَالى: وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا» وقولِه تعالى: (بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ)احتاجَ أنْ يُبَيَّنَ أنَّ مَعناهُ: اسألْ أهلَ القريةِ وأهلَ العيرِ وبل مكرُكُمْ باللَّيلِ والنَّهارِ ومِثلُه في القرآن كثيرٌ»(٤).

يتميز النص بحضور لافت للتراكيب التوجيهية المعللة التي وظفت لتقويم أساليب الكتابة بغية تحقيق الوضوح والدقة في التعبير وتجنب الالتباس الدلالي؛ إذ تمثل التوجيه بقوله: (واعلم انَّه لايجوز في الرسائل .)، و(ينبغي للكاتب ان يتجنب..) اللتين حملتا دلالة توجيهية يراد بها إرشاد المخاطب إلى تجنب استعمال أساليب القرآن الكريم في الرسائل.ويقدم الكاتب السبب معللاً بالأداة (لأن) التي تبين أن سبب التوجيه اختلاف طبيعة المتلقين، إذ إن خطاب القرآن الكريم موجه إلى أقوام فصحاء قادرين على فهم أساليبه وتفهم معانيه، أما الرسائل فهي موجهة إلى متلقين لايملكون الكفاءة اللغوية نفسها مما قد يؤدي إلى سوء الفهم.كما يدعم الكاتب تعليله

(١) استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية: ٥٣٧.
(٢) ينظر استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية: ٥٣٧.
(٣) ينظرتعزيز القوة الانجازية في بنية العقل العربي لمحمد عابد الجابري: ٢٧٠٣
(٤) الرسالة العذراء: ١٨.

بالاستشهاد بالآيات القرآنية إذ استحضر بعض الآيات القرانية لتأكيد مايرد في القرآن الكريم من أساليب الحذف والمجاز التي تحتاج إلى فهم خاص، كقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَاۖ﴾(١)وقوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾(٢)ويعمل على تفسيرها؛ ليؤكد أن مايجوز في القرآن الكريم من أساليب لايصح استعمالها في الرسائل؛ليتحول النص من مجرد توجيه إلى خطاب إقناعي مدعم بقوة الحجة بما يرسخ الفكرة ويقوي أثرها في المتلقي.

ويستند الكاتب إلى قول النبي (صلى الله عليه وسلم)، لتقوية توجيهه إذ يغني الاستشهاد به عن ذكر أسباب وعلل أخرى(٣)، لما له من سلطة تجعله دليلاً كافياً على صحة التوجيه، ومن ذلك قوله: »وأُحبُّ أنْ تَجعَلَ بَدلَ الأُشارَةِ* التُّرابَ؛ فإنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: (أَتْرِبُوا كُتُبَكُم فإنَّه أَنْجَحُ للحَاجَةِ)»(٤).

ورد التوجيه بصيغة خبرية فعلية تمثلت بقوله: (وأحب أن تجعل..)إذ تجاوز التركيب ظاهره الخبري إلى وظيفة توجيهية غير مباشرة تضمنت معنى النصح والإرشاد عملت على حث المخاطب على استعمال التراب بدلاً من نشارة الخشب ويستمد التوجيه قوته الإقناعية من الجملة التعليلية المتمثلة بقول النبي صلى الله عليه وسلم: (أتربوا كتبكم فإنَّه انجح للحاجة)(٥)لإقناع المخاطب وحمله على قبول التوجيه.

ومما دعم به الكاتب توجيهاته السرد القصصي فالحكاية تروى لتدعيم الخطاب وتقوية أثره(٦) ومن ذلك قوله: «ولاَتَجعَلْ سَحَاةَ كُتُبِكَ غليظةً إلا في العُهودِ والسّجلاَّتِ التي تحتاجُ إلى خَواتمِهَا وطوابعِهَا؛فإنَّ محمَّدَ بنَ عيسى الكاتبَ آل طاهرٍ كتب إلى العِراقِ في أشخاصِ كاتبٍ كانَ كتبَ إليهِ، فكتبَ وغَلَّظَ سَحَاةَ كتابِه، فَرَدَّالكِتابَ إليه، فَقَدِمَ عليه راجيًا لِبِرّه وجائِزتِهِ؛فقالَ

(١) سورة يوسف: ٨٢.
(٢) سورة سبأ: ٣٣.
*الأشارة بضم الهمزة نشارة الخشب ينظر الرسالة العذراء: ٢٦
(٣) ينظر دراسات في الحجاج قراءة لنصوص مختارة من الأدب العربي القديم: ١٥٣
(٤) الرسالة العذراء: ٢٦
(٥) اخرجه الترمذي في باب تتريب الكتاب رقم الحديث(٢٧١٣) وحكم عليه بالضعف ينظر الجامع الكبير سنن الترمذي، ج٤ / ٤٣٨، ويشير د. زكي مبارك بعد مراجعته لتخريج الحديث ان كثيرا من الاحاديث في هذا الباب كان للكتاب يد في وضعها فيما يتعلق بمهنة الكتابة وادواتها ينظرالرسالة العذراء: ٢٦.
(٦) ينظر الحجاج بين النظرية والأسلوب: ٩٢

عبدُاللهِ بنُ طَاهِرٍ: إنْ كانَ مَعكَ مِسْحَاةٌ فاقْطَعْ خَزْمَ كتابِكَ وانصَرفْ وراءَكَ»[١]

يوجه النص كاتب الرسائل إلى عدم المبالغة بسحاة الكتاب _تعني ما شدّ به الكتاب أو ما ربط به[٢] إلا في المواضع التي تستدعي ذلك، وقد حددها في العهود والسجلات، عبر بنية توجيهية معللة تتجلى في قوله: (لا تجعلْ سحاة كتبك.. فأن محمد بن عيسى..)، وقد تعزز التوجيه بحكاية مروية وظفت بوصفها دعامة إقناعية تبين ما يترتب على الإخلال بضوابط صنعة الكتابة مما يقوي الأثر الاقناعي للتوجيه.

وقد تدعم البنية التوجيهية تعليلها وتقوي تأثيرية أفعالها بالمثل فهو مقرون بالحجة[٣]و»يؤتى به لتأكيد الفكرة المطروحة»[٤]ومما ورد منه: »وكذلك لاَ تُعَظّمْ الطّينَةَ*، ففي المَثلِ: مَنْ عَظَّمَ الطّينة فَإنَّه مَلومٌ.ولاتَطْبعْهَا إلاّ بَعْدَ عُنوَانَاتِها، فإنَّ ذلكَ مراديهم»[٥]

تزداد القوة التوجيهية لفعل النهي في (لا تعظم الطينة) بالتعليل المقرون بالمثل الذي يهدف إلى إرشاد الكُتاب لتجنب المبالغة في تعظيم الطينة التي تختم بها الكتب مبيناً أن من بالغ في ذلك فقد استحق اللوم عن طريق المثل الذي يعمل على ترسيخ التوجيه في ذهن المتلقي، ويتواصل توجيه الكُتاب بصيغة النهي المعللة في قوله: (لا تطبعها إلا بعد عنواناتها فأن ذلك مراديهم) بعدم وضع الطابع إلابعد الفراغ من إتمام العنوانات تطبيقاً لقواعد الكتابة.

وقد يوظف في تعليل توجيهاته سلطة الأحكام النقدية ولاسيما تلك القائمة على مجموعة غير محددة يطلق عليها (الطرف الثالث المتكلم)، ويستثمر هذا النوع لتقوية القول[٦]، إذ يُقدم بوصفه رأياً مستقراً لا يمكن التشكيك في ملفوظاته، ويتجلى ذلك في معرض حديثه عن مراعاة مقامات المخاطبين وملاءمة الخطاب لأقدارهم، ومن ذلك قوله:

(١) الرسالة العذراء: ٢٧
(٢) ينظر لسان العرب مادة (سحا).
(٣) ينظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: ١ / ٣١٢.
* الطينة قطعة من الطين يختم بها الصك ونحوه، وطان الكتاب طينا وطينه ختمه بالطين، واطن الكتاب اختمه.ينظر لسان العرب مادة (طين).
(٤) الحجاج في البلاغة المعاصرة بحث في بلاغة النقد المعاصر: ١٣١.
(٥) الرسالة العذراء: ٢٧
(٦) ينظر المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب: ١٣١ - ١٣٢

«ولكلّ مكتوبٍ إليه قدرٌ ووزنٌ ينبغي للكاتبِ ألا يتجاوزَ بهِ عنهُ، ولا يُقَصّرَ به دُونَهُ. وقد رأيتهُم عَابُوا الأَحْوَصَ حين خاطبَ الملوكَ بمُخاطبةِ العَوامّ بقوله:

وَأراكَ تَفْعَلُ مَاتَقُولُ، وبَعضُهمْ مَذِقُ الحديثِ يَقُولُ مَا لاَ يَفْعَلُ

فهذا معنىً صحيح في المدحِ، ولكَنَّهُم أجَلُّوا أقدارَ الملوكِ أنْ يُمدَحُوا بما يُمدَحُ بهِ العَوامُّ، لأنَّ صِدقَ الحديثِ وإنجَازَ الوعدِ، وإنْ كانَ مَدْحًا؛ فهوَ واجبٌ على كل. والملوكُ لايُمدحونَ بالفُرُوض الواجبةِ، وإنَّما يحسُنُ مَدحُهُم بالنَّوافِل، لأنَّ المادِحَ لوقالَ لبعضِ الملوكِ: إنَّكَ لاتَزني بِحليلَةِ جارِك، وإنَّكَ لاتخُونُ ما اسْتُودِعتَ، وإنَّكَ تَصدُقُ في وعدِكَ، وَتَفِي بِعَهدِكَ، كانَ قد أثنَى بما يَجِبُ، ولكنَّهُ لم يَصلْ بثنائِهِ إلى مَقصده، وقالَ ما لا يُستحسنُ مثلُهُ في الملوكِ»[1]

يقوم النص على توجيه إرشادي بقوله: (ينبغي للكاتب ألا يتجاوز به عنه، ولا يقصر به دونه) يتمثل بدعوة الكاتب إلى مراعاة مقام المخاطبين وملاءمة الخطاب لأقدارهم. وقد اقترن هذا التوجيه بتعليل قائم على حكم نقدي يستند إلى سلطة نقدية جماعية غير محددة، كما في بقوله: (وقد رأيتهم عابوا الأحوص..) إذ يستثمر الكاتب هذا الرأي في تعليل موقفه بوجوب مراعاة مقامات المخاطبين ثم عزز ذلك بأحكام نقدية مثل قوله: (لكنهم أجلوا أقدار الملوك أن يمدحوا..)، و(وانما يحسن مدحهم بالنوافل)، لبيان عدم ملاءمة مدح الملوك بالصفات الواجبة، ويتعزز الحكم النقدي بالتعليل بالأداة (لأن) بقوله: (لأن صدق الحديث..) الذي جاء لتوضيح سبب عدم استحسان مدح الملوك بالصفات الواجبة المشتركة بين الناس فضلاً عن التعليل الآخر بقوله: (لأن المادح لوقال .) إذ جاء موضحاً للعلة السابقة ومؤكداً لها وقد اكتسب التوجيه بعداً إقناعيًا قائمًا على سلطة الحكم النقدي والتعليل السببي مما عزز فاعلية الخطاب الإقناعي.

وقد يستند النص إلى سلطة الطرف الثالث في توجيهاته، ويدعم توجيهه بالاستشهاد الشعري، إذ يعمل الشعر على دعم القول وتعزيز أثره لما يستند إليه من خلفيات ثقافية ووجدانية مشتركة تمنحه مزيداً من القبول [2] ومما يزيد من قبوله لدى المتلقي إسناد الشعر إلى قائله، فيمنح القول قوة وتوجيهاً أكبر، ومما ورد في ذلك توجيه الكتّاب إلى كيفية استعمال ألفاظ الدعاء في المكاتبات:

(١) الرسالة العذراء: ١٥
(٢) ينظر بلاغة الاقناع في المناظرة: ٢٣٩

«لم يُجيزُوا أنْ يَكتبُوا بمثلِ «أبقاكَ اللّهُ وأمتَعَ بِكَ» إلاَّ إلى الحُرمَةِ والأهلِ والتَّابعِ والمُنقَطِعِ إليكَ. وأمَّا في كُتُبِ الإخْوَانِ فغيرُ جائزٍ، بلْ مَذمومٌ مَرغوبٌ عنهُ؛ولذلكَ كَتَبَ عَبْدُ اللّهِ بن طاهِرٍ إلى محمَّدِ بنِ عبدِ المَلِكِ الزَّيَّاتِ:

أَحُلتَ عَمَّا عَهِدتُ مِن أَدَبِك ... أَمْ نِلْتَ مُلْكًا فَتِهتَ في كُتُبِك
أَمْ هَلْ تَرى أَنَّ في التواضعِ لِلـ ... ـإخوَانِ نَقصًا عَليكَ في حَسَبِك
أَتَعَبتَ كَفيكَ في مُكاتَبتِي ... حَسبُك مِمَّا يَزيدُ في تَعَبِك
إنَّ جَفاءَ كتاب ذي أَدَبٍ ... يُكْتَبُ في صَدرِهِ : وأَمتَعَ بِك

فَكَتبَ إليهِ مُحَمَّدُ بنُ عبدِ الملكِ:

أَنكَرتَ شَيئاً فَلَستُ فَاعِلَه ... فلن تَرَاهُ يُخَطّ في كُتُبِك
فاعفُ فَدتكَ النُّفوسُ عَن رَجُلٍ ... يَعيشُ حَتَّى المَمَاتِ في أدَبِك
كَيفَ أخوانُ الإخَاءَ يَا أمَلِي ... وَكُلُّ شَيءٍ أَنَالُ مِن سَبِبِك
إنْ يَكُ جَهلاً أتاكَ من قِبلي ... فَعُد بِفَضلٍ عَلَيَّ في أدبك[1]

جاء التوجيه في النص في صورة جمل خبرية لا إنشائية دالة على المنع والجواز المشروط وردت في التراكيب (لم يجيزوا أن يكتبوا..)، و(وأما في كتب الأخوان فغير جائز)، و (بل مذموم مرغوب عنه) وهي تراكيب تؤدي وظيفة توجيهية تحث على تجنب استعمال بعض صيغ الدعاء في المكاتبات مثل (أبقاك الله وأمتع بك)، وقصر استعمالها في سياقات مخصوصة محددوة (كالحرمة والأهل والتابع والمنقطع إليهم)، أما في مراسلات الإخوان فهي غير جائزة و مذمومة. وقد عزز هذا التوجيه بالإستشهاد بالمراسلة الشعرية التي دارت بين عبد الله بن طاهر إلى محمد بن عبد الملك الزيات، التي كشفت أن استعمالها بين الأصدقاء يعد قرينة على الجفاء ومخالفة لأدب الإخوان؛ ليأتي رد محمد بن عبد المللك استجابة لعملية التوجيه وتأكيد لما يقتضيه المقام من التواضع وعدم التكلف.

ويوظف المثال الشعري بوصفه دعامة استدلالية عبر بنى تعليلية، حين يوجّه الكاتب إلى ضرورة ملاءمة الألفاظ لسياقها وأثر ذلك في تحديد قيمتها، كما في قوله:

(١) الرسالة العذراء:١٤.

« وتكونُ الكلمةُ بشِعَةً حتَّى إذا وضِعَتْ مَوضِعَهَا وقُرِنَتْ مَعَ أخَواتِها حَسُنَ حالُها وَراقتْ كقولِ الحَسَنِ بنِ هَانِئ:

ذُو حضرٍ أَفْلَتَ مِنْ كَدِّ القُبَلْ

والكدُّ كلمةٌ قلقةٌ لاسيَّما في الرقيقِ والغَزلِ والتَّشبيبِ، غيرَ أنَّها لمَّا وَقعتْ في مَوضعِها حَسُنتْ؛ كمَا أنَّ اللَّفظَةَ العَذبةَ إذا لمْ تُوضَعْ مَوضِعَها نَفرتْ، قال **الأشاعر**:

عَارِضًا جَونًا فَقَامَتْ غَرِيزةً بِمَسْحَاتِها قَبلَ الظَّلامِ تُبادِرُهْ

فأوقَعَ الجِلفُ الجافي هذهِ اللَّفظَةَ في غَير موقعِها، وظَلَمَهَا إذْ جَعلَها في غَيْرِ مكانِها، لأنَّ المسَاحِيَ لاتكونُ ولاتَصْلُحُ للغرائرِو أينَ كانَ من قولِ الشاعِرِ:

غَرائِرُ مَاحُدِّثنَ يُهْدِينَ أُنسه فما فَوقَهُ مِنْهُنَّ غيرُ غَرَائِرِ
حَدِيثٌ لوَ أنَّ العُصْمَ تُدعَى بِهِ أتَتْ وَدونَ يَدِ الفَحْشاءِ حَدُّ البَواتِرِ

فَتَخَيَّرْ من الألفاظِ أرْجَحَها وَزنًا، وأجْزَلَهَا مَعنىً وأَلَيقَها في مكانِهَا وأَشكَلَها في مَوضِعِها»[1]

يهدف المتكلم إلى حمل المخاطب على مراعاة ملاءمة الألفاظ لمواضعها، وبيان أثر السياق في تحسينها أوتقبيحها، وذلك عبر افتتاح خطابه ببنى تعليلية اعتمدت على الأحكام النقدية الواردة في النص(بشعة، حسن حالها، قلقة، حسنت، نفرت، ظلمها) مما يؤكد أن قيمة اللفظة تتحدد في موقعها داخل سياقها.كما تعززت هذه البنية بجملة من الشواهد الشعرية التي تظهر أثر السياق في تغيير الحكم اللفظة من القبح إلى الحسن أو بالعكس، إذ يعمل الشاهد الشعري على نقل الفكرة من المستوى النظري الى المستوى التطبيقي بما يعمق أثرها في المتلقي.فضلاً عن ذلك يرد التعليل السببي بقوله: (لأن المساحي لاتكون ولاتصلح للغرائر..) إذ جاءت الأداة (لأن)؛لتفسر سبب قبح اللفظة في ذلك الموضع وقد اعتمد الكاتب في بناء نصه التوجيهي الأقناعي على الصنف التدريجي الاستدلالي لبناء الحجة الذي تسبق المقدمات فيه النتيجة[2]إذ يعمل هذا البناء النصي على تهيئة ذهن المتلقي واقناعه بالفكرة قبل التصريح بالتوجيه الذي جاء عقب تعليلاته والمتمثل بقوله: (فتخير من الألفاظ أرجحها..) ليكون التوجيه نتيجة منطقية لمقدماته التعليلية ولهذا الأسلوب أثره في المتلقي إذ يؤدي إلى استقرار الفكرة وسوخها في ذهنه.

(١) الرسالة العذراء ٢١.
(٢) ينظر في أصول الحوار و تجديد علم الكلام: ٣٦.

الخاتمة

· مثلت التراكيب التوجيهية التعليلية في الرسالة العذراء الركيزة الأساسية التي قام عليها الخطاب التوجيهي والأداة الفاعلة في تحقيق مقاصد الخطاب الإرشادية والتعليمية وتقوية أثره الإقناعي.

· تنهض التراكيب التوجيهية التعليلية في الرسالة بوظيفة إنجازية لا يقتصر أثرها على توجيه سلوك المتلقي بل يمتد إلى بناء خطاب تعليلي إقناعي

· إنماز نسق التراكيب التوجيهية التعليلية بالتنوع تبعًا لمقتضيات المقام ومقاصد المتكلم فتراوحت بين التراكيب البسيطة والمركبة وكان التوجيه المركب أكثرها دوراناً في الرسالة مما أكسب الخطاب كثافة دلالية وإقناعية عالية.

· انبنى الخطاب التوجيهي في الرسالة على أسلوبي الأمر والنهي، لما يحملانه من دلالات مباشرة على الطلب والمنع، فكانا من أهم وسائل صناعة المعنى التوجيهي في الرسالة.

· تنوعت الوسائط اللغوية التعليلية في الرسالة فكانت من أهم المكونات الناظمة في النسق التوجيهي التي عملت على ربط فعل التوجيه بعلته وكان لها الدور الفاعل في الكشف عن مقاصد التوجيه.

· حوت نصوص الرسالة وسائل استدلالية مثلت دعامات الخطاب التوجيهي انتشرت في عموم الرسالة من أهمها الاستدلال بالقرآن الكريم والحديث الشريف والشعر والأمثال وغيرها من وسائل التدعيم التي كان لها الأثر البارز في تحقيق الإقناع.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١. استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، عبد الهادي ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة ط١، ٢٠٠٤.

٢. آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، محمود احمد نحلة، دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٢.

٣. بلاغة الإقناع في المناظرة، عبد اللطيف عادل، منشورات ضفاف، ط١، ٢٠١٣.

٤. التراكيب اللغوية في العربية دراسة وصفية تطبيقية، هادي نهر، مطبعة الإرشاد - بغداد، ١٩٨٧.

٥. التعريفات، علي بن محمد بن علي الشريف الجرجاني، ضبطه وجمعه جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط١، ١٤٠٣١٩٨٣.

٦. التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس (مشروع قراءة)، حمادي صمود، منشورات الجامعة التونسية، ١٩٨١.

٧. الجامع الكبير سنن الترمذي، ابو عيسى الترمذي، حققه وخرج أحاديثه بشارعواد معروف، دار الغرب الاسلامي بيروت، ط١، ١٩٩٦.

٨. الحجاج بين النظرية والأسلوب عن كتاب نحو المعنى والمبنى، باتريك شاردور، ترجمة د. أحمد الوردني، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط١، ٢٠٠٩.

٩. الحجاج في البلاغة المعاصرة بحث في بلاغة النقد المعاصر، محمد سالم محمد الأمين الطلبة، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، ٢٠٠٨.

١٠. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، احمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي، تح: احمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، ط٢، ٢٠٠٣.

١١. دراسات في الحجاج قراءة لنصوص مختارة من الأدب العربي القديم، سامية الدريدي الحسني، ، عالم الكتب الحديث، ط١، ٢٠٠٨.

١٢. الرسالة العذراء، لابراهيم بن محمد الشيباني القيراوني، تحقيق وتقديم د.محمد المختار

العبيدي، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث دبي، ٢٠٠٩.
١٣. الرسالة العذراء في موازين البلاغة وادوات الكتابة، لابي ابراهيم بن محمد الشيباني، تحقيق ودراسة، يوسف محمد فتحي عبد الوهاب، دار الطلائع للنشر القاهرة، ط١، ٢٠٠٥
١٤. الرسالة العذراء لأبراهيم بن المدبر، تحقيق، د. زكي مبارك، مكتبة دار الكتب المصرية بالقاهرة، ط١، ١٩٣١.
١٥. شرح المفصل للزمخشري، ابن يعيش، قدم له د.اميل بديع يعقوب، الناشر دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠١.
١٦. الطراز المتضمن لاسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز، يحيى بن جمزة العلوي، مطبعة المقتطف، مصر، د.ط، ١٩١٤.
١٧. في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، ط٢، ٢٠٠٠.
١٨. لسان العرب المحيط، ابن منظور، قدم لهالعلامة الشيخ عبد الله العلايلي، أعداد وتصنيف يوسف الخياط ونديم المرعشلي، دار لسان العرب، بيروت، ١٩٧٠.
١٩. اللسان والميزان، طه عبد الرحمن، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط٢، ٢٠٠٦.
٢٠. المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، دومينيك مانغونو، ترجمة: محمد يحياتن، منشورات الاختلاف، ط١، ١٤٢٨ - ٢٠٠٨.
٢١. معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د.احمد مطلوب، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٨٦.
٢٢. معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق وضبط عبد السلام محمدهارون، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط٢، ١٩٦٨١٩٧٢.
٢٣. المعنى في البلاغة العربية، حسن طبل، دار الفكر العربي، القاهرة ط١، ١٩٩٨.
٢٤. نظام الارتباط والربط في تركيب التركيب العربية، حميدة مصطفى، مكتبة ناشرون، بيروت الشركة المصرية العالمية للنشر لونحمان مصر، ط١، ١٩٩٧.
٢٥. نظرة على فن الكتابة عند العرب في القرن الثالث الهجري، تأليف زكي مبارك، تر: ابراهيم عوض، المجلس الأعلى للثقافة، ط١، ٢٠٠٦.

٢٦. النظرية النقدية عند العرب، هند حسين طه، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، ١٩٨١.

المجلات والدوريات:

١. التراكيب النحوية من الوجهة التداولية، عيد الحميد السيد، مؤتة للبحوث والدراسات، المجلد١٦، العدد٢، ٢٠٠١.

٢.تعزيز القوة الانجازية في بنية العقل العربي، محمد عابد الجابري، احمد محمد عبد الرحمن حسانين، مجلة كلية الآدابجامعة الفيوم الانسانيات والعلوم الاجتماعية، مج ١٣، ع ٢ يوليو، ٢٠٢١.

٣. دلالة التعليل في اللغة العربية السببية انموذجاً، زيتوني صالح، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها المجلد ١٣ / العدد٢، ١٥ / ٢٠٢١ / ٩.